الحبُّ الإلهي في شعر أدونيس

الدكتورة كبري روشنفكر [1]

الدكتور خليل پ‌رويني [2]

كاوه خضري [3]

الملخَّص

شهد دين الإسلام التصوف منذ قديم العهد، و ارتبط التصوف الإسلامي بعقائد و أفكار متعددة كانت بمثابة روافدَ صغيرةٍ عديدةٍ تصب في التيار الضخم القائم علي الأصول الإسلامية،أما الشعر فله ارتباط بالتصوف، و الشاعر قد لا يكون متصوفاً أو لا يلزمه أن يكون متصوفاً و لكن الصوفي لا يبعد أن يكون شاعراً. والذي لا نشك فيه هو أنّ الصوفية قد أثّرت في كل المذاهب الفكرية. إذن كان للبعد الصوفي في هذه الاتجاهات الشعرية و الفلسفية أثره في الشعر العربي المعاصر، إضافة إلي أثر الفلسفة الصوفية الخالصة. يعتبر أدونيس من جملة هؤلاء الشعراء المعاصرين الذين يتمتع شعره بنصيب وافر من هذا النوع من الشعر الصوفي. إذن تحاول هذه المقالة من خلال المنهج الوصفي و في ضوء النقد الهرمينوطيقي و تحليل مواضع الحب الإلهي في شعر أدونيس، أن تبين جماليات هذا النوع من الحب في شعر أدونيس. تدلُّ النّتائج علي أنَّ الحبُّ الإلهي في شعر أدونيس، يكون متَّجهاً إلي أهداف، منها أنَّ الصوفية في ذاتها تعطي للشعر الحديث الحيوية كما أنَّها تعطي للشاعر قدرة الإبداع حيث استخدم أدونيس الصوفية كرؤية جديدة للعالم و من هنا هذه الصوفية تجعل الشاعر مبدعاً في معظم ما قال في مجال الحبِّ الإلهي.

الكلمات الرئيسية:الصوفية، الشعر العربي الحديث، الحبُّ الإلهي،أدونيس.

1. المقدمة

الأسئلة التي يمكن أن نطرحها بالنسبة إلي الشعر و الشاعر ليست بعيدة عن تلك الأسئلة التي نسألها عن الصوفية، طبعاً إذا أردنا أن نشرع في دراسة أثر الصوفية في الشعر فبإمكاننا أن نسأل أولاً عن الصوفية ما هي؟

فإذا بحثنا عن تعريف للتصوف في المعاجم و المصادر المختلفة فلن يكون أمامنا تعريف واحد أو تعريفان، بل تعريفات كثيرة متباينة.عرف الدكتور أبوالوفا التفتازاني التصوف تعريفاً جامعاً بقوله:«التصوف فلسفة حياة تهدف إلي الترقي بالنفس الإنسانية أخلاقياً، و تتحقق بواسطة رياضات عملية معينة تؤدي إلي الشعور في بعض الأحيان بالفناء في الحقيقة الأسمي، و العرفان بها ذوقاً لا عقلاً، و ثمرتها السعادة الروحية، و يصعب التعبير عن حقائقها بألفاظ اللغة العادية، لأنها وجدانية الطابع و ذاتيته» (التفتازاني، 1986: 8).

أما الشعر فله ارتباط بالتصوف، و الشاعر قد لا يكون متصوفاً أو لا يلزمه أن يكون متصوفاً و لكن الصوفي لا يبعد أن يكون شاعراً، يقول الدكتور نجيب زكي محمود في كتابه «مع الشعراء»: «فالصوفي شاعر سواء نظم القول أو نثر، فأداة الإدراك عنده هي نفسها أداة الإدراك عند الشاعر، و المعين الذي يستقي منه هو نفسه المعين الذي منه يستقي الشاعر، و الوسيلة التشبيهية التي يستخدمها في أداء ما يؤديه هي نفسها وسيلة الشاعر» (زكي محمود، 1983: 217).و قد كثرت الأقوال بالنسبة إلي تسرُّب التصوفِّ إلي عالم الشعر و الأدب، و تراث الأدب العربي شاهد حيٌّ علي ذلك القول. فكثير من الصوفية كانوا شعراء كسمنون، النفرِّي، رابعة العدوية، ابن فارض و غيرهم من الشعراء. فليس المجال هنا أمامنا لكي نتحدَّث عن شعر هؤلاء، بل نريد أن نستقصي هذا التفاعل بين التصوف و الشعر في شعر أدونيس.

لا شك أن الخلق الشعري يبدأ من «التخييل» 4، و يبدأ أفق التغيير لدي أدونيس من هذا التخييل. إضافة إلي أنَّ الرؤيا لديه هي رؤيا تخييلية، يراد بها علي وجه الحقيقية «الإبداع الشعري» 5 الذي يكون السبيل إلي تحرير الحقيقة التي

يبحث عنها و تجليها و الكشف عنها (الرحاوي، 2013: 72).إذن للجانب الصوفي في شعر أدونيس علاقة مباشرة بهذا التخييل، لأنَّ وسيلة التوغُّلِ في عالم الصوفية عنده تكون التخييل. لأنّ التخييل يبدأ من نقطة الشروع إلي ما لا نهاية له. و نحن هنا لسنا علي صدد استقصاء كل الأبعاد الصوفية عند الشاعر، بل نريد أن نتعرَّف علي آراء الشاعر حول الحبِّ الذي يسمِّي الحب الإلهي. و من أجل ذلك نريد أن نتوقَّف عند الخطوط الفكرية الرئيسية عند الشاعر و هي: الحبِّ الإلهي في شعر أدونيس و الخلق الشعري، الحبِّ الإلهي في شعر أدونيس، طريق الاتحاد بالمطلق و الأبدية، الحب الإلهي في شعر أدونيس، إيمان بالوحدة.

والشيء المهم بالنسبة إلي الحبِّ الإلهي في شعر أدونيس، هو أنك لا تستطيع أن تقوم بتحديد المواضع التي يتحدّثُ الشاعر فيها عن الحبِّ. و من أجل هذا و بالتسامح كلُّ ما قال الشاعر في حقل الصوفية يدخل في إطار ذلك الحبِّ، لأنَّ الصوفية في نفسها ليست منفصلة عن مفهوم الحبِّ. و في هذا المجال يقول الشاعر في كتابه «الصوفية و السوريالية»: «و معني ذلك أنَّ الحب لا يوجد في حالةٍ من الثبات، بحيث يمكن تعيينه أو تحديده، و إنّما هو في حالة دائمة من الحركة و التحوُّلِ، بحيث يبدو كأنّه غير موجود، أو كأنّه معدوم كما يقول ابن عربي. فالحبُّ إرادة اتِّصالٍ بمحبوبٍ، لا لشخصه، أو لوجوده في عينه، و إنّما لدوام الاتِّصال و استمراره. و الدوام و الإستمرار معدومان: أي أنهما يخلقان باستمرار، و لا تتناهي مدَّتهما. و هكذا يكون الحبُّ في حال الوصال متعلِّقاً بكيانٍ يبتَدَأ وجوده دائماً. فكأنَّ الحبَّ هو اللَّهفة التي تتواصل لمحبوب غير موجود. نقول، بعبارة ثانية، إنَّ الموجود لا يحَبُّ لذاته، بل لما نحبُّ منه أن يكون و هذا إنشاء و يبقي إنشاء، أو يبقي معدوماً كما يعبِّرُ ابن عربي» (أدونيس، 1991: 96).

1-1. سؤال البحث

ما هي الخطوط الفكرية الأساسية عند أدونيس بالنسبة إلي الحب الإلهي؟

1-2. منهج البحث

منهج البحث في هذه المقالة هو المنهج الوصفي –التحليلي وفي ضوء الهرمينوطيقيا. لا مفر إذن من الوقوف عند مصطلح «الهرمينوطيقا». لفظ الهرمونيطيق مأخوذ عن كلمة هرمنيا اليونانية التي أخذ عن هرمس (ربّ الكلام و التفسير).مِن أهم مَن تطرّق إلي النقد الهرمونيطيقي في مجال الأدب يمكن أن نشير إلي: فردريش شلاير ماخر [6]، ويلهلم ديلتاي [7]، هانس جئورج جادامر [8](سلدن، 2006: 13). فهم يعتقدون بمبادئ منها:

أ) إنّ النّص له معني غيرما أراد الشاعر، مع أنّ المعني يوجد في النّص و لكن مختبيء فيه و ليس المعني واضحاً كالنص.

ب) فهم النّص يحتاج إلي معلومات سابقة. علي حدّ رأيهم الإنسان لا يقرأ نصّاً إلّا إذا توفّر لديه من العلم ما يساعده في فهمه (شايگان فر، 1390: صص207-208).

1-3. الداراسات السابقة

الف) كتاب «صورة الحب في الشعر العربي الحديث دراسة تحليلية نقدية» (2009م)، للدكتور جان نعّوم طنّوس. هذا الكتاب بحث موضوعي لا يكتفي بجمع المعلومات وتصنيفها، بل يحاول أن يقول جديداً متوقفاً عند ظاهرة من ظواهر الشعر الحديث ألا وهي تجربة الحب كما تتجلّي عند خمسة شعراء من مؤسسي الحداثة. وقد حاول المؤلف الكشف عن تجربة الحبّ في شعر أدونيس في بضع صفحات.

ب) مقالة «تجلّي التجربة الصوفية عند أدونيس وسهراب سبهري» (1392هـ)، كتبتها فريده داودي و طاهره اختري. تقوم هذه الدراسة بوصف شعر أدونيس وسبهري والمقارنة بينهما من وجهة نظر التجارب الصوفية والانطباعات الحالمة للشاعرين ولاتقوم ببيان الفوراق بين الرؤيا الأدونيسية و السبهرية.

ج) كتاب «الشعر و الوجود، دراسة فلسفية في شعر أدونيس» (2000م)، الّفه عادل الظاهر. والكاتب يهتم بقراءة شعر أدونيس قراءة فلسفيةً. هناك في أعمال

أدونيس الكثير مما يحرض طرح أسئلة فلسفية حول قضايا الحياة والوجود وهذا هو الباعث في تأليف هذا الكتاب.

د) كتاب «الشعر و التصوّف، الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر» (1999م)، كتبه الدكتور إبراهيم محمد منصور.جاء هذا الكتاب ليضعَ لبنة في بناء «أصول الشعر العربي المعاصر»، هذه الأصول التي امتدت و تشابكت، و انتجت فروعاً تطاولت و لقد تعرض المؤلف في هذا الكتاب الرائع لدراسة الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر في النصف الثاني من القرن العشرين و أقتصر علي دراسة نماذج من الشعراء علي أساس توفّر النصوص التي يظهر فيها الأثر الصوفي عند الشاعر ظهوراً قوياً يصلح معه للدرس و التحليل. و إذا كان محمود حسن إسماعيل و صلاح عبدالصبور و عبدالوهاب البياتي و محمد الفيتوري و أدونيس و محمد عفيفي مطر، كل واحد من هؤلاء قد أفرد له المؤلف فصلاً خاصاً لدراسة مظاهر الصوفية في شعره.

2. الحبُّ الإلهي في الشعر العربي الحديث

أما بالنسبة إلي الصوفية في الشعر الحديث فليس المجال هنا أمامنا لكي نتحدّث عن كلها بالتفصيل، و الشيء الذي لا نشك فيه هو أنّ الصوفية قد أثّرت في كل المذاهب الفكرية. الشعراء العرب المعاصرون كلهم ينتمون إلي المدارس الفكرية المختلفة، فقد تأثروا بالرومانطيقية كما تأثروا بالفلسفة الوجودية و النزعة الإنسانية، و الماركسية والشيوعية، وكذا بالشعر الغربي والحداثة 9 بما تحويه من رمزية وفرويدية (محمد منصور، 1999: 83). إذن كان للبعد الصوفي في هذه الاتجاهات الشعرية و الفلسفية أثره في الشعر العربي المعاصر، إضافة إلي أثر الفلسفة الصوفية الخالصة.

وربّما من أهمِّ تلك النزعات التي أثرت في شعرنا الحديث هي الحداثة الأوروبية كرافد من أهم الروافد التأثيرية في الحداثة العربية، وأهم ما يعنينا من جوانب التأثير الحداثي في الشعر العربي المعاصر هو علاقة الحداثة بالتصوف. فمن المؤكدِّ أن الحداثة فيها من الخصائص ما يتفق مع التصوّف أو يؤدي إليه. ومن

ذلـك: الغمـوض، فالوضـوح المطلـق لـيس حـداثياً (هـدارة، لا تـا: 49). ومـن الخصائص الرمزية في الحداثة التي تتشابه مع التصـوف، رمزيـة الحـروف، كمـا أنّ نوفاليس 0 1 و مالارميه 1 1 يعتبران الحروف الأبجدية أعظم الآثار الشـعرية. إذن نستطيع أن نقول مع هرمان بار 2 1، بحقٍّ:«إنّ التصوف و الغموض من أهم معاني الحداثة»(المصدر نفسه: 97). و من خصائص الحداثة إسقاط الخطئيـة، فقـد كان بعض الفنانين و الشعراء في القرن التاسع عشر يقولون إذا لـزم الأمـر، حطِّـم جميع قوانين الآلهة و البشر لكي تعبِّر عن ذلـك، و لقـد كـان الحـلاج يـدافع عـن إبليس، بينما أثبت ابن عربي صحة إيمان جميع الفروق و الطوائف، و كذلك فعـل ابن فارض في «نظم السلوك»، لكن الحداثة تنحو منحي مخالفاً للتصوف في الحقيقة إذ تدعو إلي اقتراف الخطيئة، و ليس إسقاط الخطيئة التي تحملها البشر عندما أكـل آدم و حواء من الشجرة المحرمة، لكن اقتراف الخطيئة يشكل مكوناً بنيوياً للحداثـة في مراحل تاريخية مختلفة (أبوديب، 1984: 59).

لقد كثُرَت الأقوال حول مفهوم الحـبِّ و المعرفـة في عـالم التصـوفِ. و هنـاك خلاف في هذا الموضوع، فمن الصوفية من يقدِّم المعرفة علي المحبّةِ. و في التصـوفِّ الإسلامي يبدو أنَّ النفري يكون من هؤلاء و ذلك قوله: «و قال لـي: المعرفـة نـارٌ تأكل المحبَّة، لأنّهـا تشـهدك حقيقـة الغـنيِّ عنـك» (النفـري، 1985: 130). و قـد تحدّثت الصوفية كثيراً في الحبِّ و العشقِ. و الحبِّ الصوفي يخـالف مـا يسـبقُ إلـي الذهن عادة من هذه اللكمة، إذ تمثَّل الذات الإلهية الطرف الآخر في هذه العلاقـة، و إن عبر عنه بألفاظ مدح لجمال المحبوب، فذلك الحمال هـو تجليـه تعـالي بوجهـه لذاته، فلجماله المطلق جلال، و إنما يتجلّي هذا الجمال بظهوره في الكلِّ كما قيل:

«جَمالُك في كلِّ الحقائقِ سافرٌ و ليسَ لهُ إلا جلالُك سَاتِرُ»

فلكل جمال جلال، و وراء كل جلال جمال. و الجمال يحـرِّك عاطفـة الحـبِّ، و لذا كان تحرّك هذه العاطفة نحو الأعلي و نحو الإلهي أي نحـو الخـالق، نحـو جـلال الحقِّ، في مقابل الشهوات الحسية، التي هي المحرِّك الأساسـي للحـبِّ الإنسـاني، و المحبّة الإلهية علوٌّ علي هذه الصفات البشرية (القاشاني، 1984: 40).و علـي كـلِّ

حال، فالحبُّ طريق للبحث عن الحقيقة، و هو فعل يقوم بـه المحـب، أي أنَّ الحـبُّ فعل، و الفعل معرفة، و المعرفة هي الحقيقة، و الحقيقة هي الحبُّ.

إذا أردنا أن نجمع بين ما قالـه السـلف في مجـال الحـبِّ و مـا نشـاهده كنتيجـة الحداثة نفهم أنَّ لدخول مفهوم الحبِّ الإلهـي في الشـعر الحـديث داوع لهـا علاقـة مباشرة بالجانب المعرفي من جهة و القصد مـن الجانـب المعـرفي هـو ذلـك الإتجـاه الإلهي الذي يحتوي علي آراء و أفكار تواسي الإنسان في هذا العالم الحداثي المعقـد كما أن لها علاقة بالجانب الشكلي من جهة أخري و القصد من هذا الجانب هو أن الصوفية في ذاتها أمر غامض. و هذه الظاهرة تعطي للشعر الحـديث إطـاراً يطـابق مع آليات الحداثة و هذا هو ما نشاهده أيضاً في شعر أدونيس.

2-1. الحب الإلهي في شعر أدونيس

في هذا القسم من بحثنا، نسلِّطُ الضوء علي كشـف أوجـه الجانـب الصـوفي في شعر أدونيس، ونحن نسـتطيع أن نصـرِّح بوجـود المواقـف الحـب الإلهـي في شـعر أدونيس كخطوط فكرية في شعره. إذن في هذا المقالة نفتِّشَ عـن بواعـث توظيـف صورة الحب الإلهي في شعر أدونيس بالنسبة إلـي تلـك الأشـعار الـتي نشـمُّ منهـا رائحة التصوف و علي أساس دراستنا في شعره، يمكن لنا أن نقسِّم صـورة الحـبِّ الإلهي في شعرأدونيس حسب تلك الخطوط الفكرية التالية:الحـبِّ الإلهـي في شـعر أدونيس والخلق الشعري، الحبِّ الإلهي في شعر أدونـيس، طريـق الاتحـاد بـالمطلق والأبدية، الحب الإلهي في شعر أدونيس، إيمان بالوحدة.

2-1-1. الحبِّ الإلهي في شعر أدونيس و الخلق الشعري

عندما تفتح كتاب «زمـن الشـعر» للشـاعر، أول شـيء تجـده في وجهـك هـو موضوع «الكشف عن عـالم يظـلُّ في حاجـة إلـي الكشـف». في هـذا المجـال يشـير أدونيس في مقام الناقد إلي أهم الأمور التي يتخلّي عنها الشعر العربي الحـديث، و من تلـك الأمـور هـي يتخلّـي الشـعر الجديـد عـن «الجزئيـة» 3 1 يقـول بهـذا الصدد:«فلا يمكن الشعر أن يكون عظيماً إلا إذا لمحنا وراءه رؤيا العالم. لا يجـوز أن تكون هذه الرؤيا منطقيـة، أو أن تكشـف عـن رغبـة مباشـرة في الإصـلاح، أو أن

تكون عرضاً لايديولوجية ما، رغم أن الشعر الجديد متداخل مع جميع حقول الفكر. أنَّ الشعر – الأغنية، الشعر – الوقائع الصغيرة، الشعر – الوصف،نقيض للشعر بمعناه الجديد من حيث أنّه لا يقوم علي كلية التجربة الإنسانية. و لعلَّ أهزل الآثار الشعرية، بالمقياس الجديد، هي غالباً الآثار التي لا تكشف إلا عقد الشاعر أو ظروفه الاجتماعية الشخصية. فالأثر الشعري الذي لا يكون بالنسبة للشاعر و القارئء إلا شكلاً من أشكال المديح أو الهجاء، هو في الحقيقة كما يقول مالرو 4 1 ضد الشعر. من المؤكد أن الشاعر يعاني أزمات نفسية و يحسُّ بوطأة آلامها. إلا أن معجزة الشعر هي، علي وجه الدقة، أن لا يعكس هذه المعطيات و حسب، بل أن يتجاوزها. ليس الأثر الشعري انعكاساً، بل فتح. وليس لشعر رسم، بل خلق» (أدونيس، 1986: 11).

إذن مطابقاً لما قال الشاعر، نستنتج بأن أهم الطرق التي يستطيع الشاعر أن يقوم بها بالخلق والإنشاء هي الطريقة الصوفية، الطريقة التي طرقها أدونيس ونتاجه الشعري في هذا المجال أصبح موضع نقاش النقّاد.

وفي مجال الحبِّ الإلهي في شعره، يستخدم أدونيس هذه الصوفية في شعره وعبر هذا الحبِّ يخلق طريقاً شعرياً جديداً. يقول الشاعر في قصيدة «الثائر»:

«لك غنيتُ حياتي
لك ربّيتُ علي الثورةِ ذاتي
كلُّ حرفٍ في نشيدِي
طينُ إنسانٍ جديدٍ
يتغذّي بكَ بالشّمسِ العتيقةِ
يتغذّي بالحقيقةِ» (أدونيس، 1996؛ ج2: 28).

والشاعر في هذه القصيدة يتحدّثُ عن الحياة و الحياة مصطلح صوفي. يقول الكاشاني حول معني هذه الكلمة:«نقيض الموت. و القصد منها هي الحياة الحقيقية الإلهية من النعوت الذاتية للعبد مع بقاء الرسم المخفي المستور بالنُّور» (الكاشاني، 1992: 350). و الشاعر هنا يشير إلي تلك الحياة، الحياة التي بدأت بالحبِّ

الإلهي. و نعتقد بأنَّ الشاعر هنا يلجأ إلي تلك اللغة المزينة بالتخييل. إذن في رأينا هناك اختلاف في معني الكلمات. أي هناك اختلاف بين معني كلمة الحياة في شعر أدونيس و شاعر آخر تختلف رؤيته عنه. فكلمة الحياة هنا تبين لنا ذلك الشعور العميق الذي يوحي إلينا شعورَ الشاعر بتلك الحياة الطيبة. و لا شك أنَّ هذه الحياة هي الطريق إلي الحقيقة و الحقيقة هي الحب كما تتفكر الصوفية. و الشاعر هنا يستخدم ذلك الطريق الشعري الذي أشار إليها، يعني شعره وسيلة للوصول إلي هدفه. و لذلك الهدف اختار الحبَّ، يعني الطريق الصوفي. هذا و من جهة كلمة الشمس في هذا المقطع أيضاً تكون رمز الحقيقية و الحقيقة مصطلح صوفي.

وفي نهاية المقطع يتحدّثُ الشاعر عن الحقيقة و الحقيقة هي: «لغة: تحقق عنده الخبر، أي صحَّ، و حقق قوله تحقيقاً، أي صدق. و هو تلخيص ما للحق من العلم، و سائر الصفات، و الشهود و الذات من شوب مالك، فلا تري العلم، و الإرادة و القدرة التي تظهر علي مظهرك و سائر المظاهر إلا له، و لا تري حقيقة شيء إلا حقيقته» (الكاشاني، 1992: 368).

التغذية بالحقيقة هنا، يعني التزيي بالحبِّ، المحبوب في رأي الشاعر هنا مصدر الحبِّ، حيث الشمس تأخذ نصيبها من الحبِّ عن المحبوب، و واضح أنَّ المحبوب الحقيقي والمصدر الأساسي لإشاعة الحبِّ علي الكون هو القادر المتعال.

إذن هنا يستخدم الشاعر، الرؤية الصوفية و يخلق عالماً شعرياً متفرِّداً حيث من الصعب الحصول إلي المعني الذي أراده الشاعر، حيث لا نستطيع أن ندعي نحن أنّ فهمنا من هذا الشعر هو نفس المعني الذي أراده الشاعر. و من شروط الفهم كما يقول أدونيس:«أن نعترفَ بأنَّ الإنسان محدود الفهم. بأنّ المعاني لا يمكن أن تكون كلُّها واضحة، مادام الإنسان نفسه لم يفهم نفسه، ومن لا يعرف نفسه المعرفة كلَّها، لن يعرف أي شيء» (أدونيس، 1986: 166).

وفي نفس القصيدة و في المقطع العاشر يتحدّث الشاعر بلغة صوفية عن الكشف حيث يقول:

«كلُّ شيءٍ عندنا ينحتُ صدرَه

بيدَيه

ناغهِ 5 1 واحنّ 6 1 عليهِ

يكشَفِ المجهولُ عبرَهُ» (أدونيس، 1996؛ج2: 31).

«المكاشفة، لغة: مصدر كاشف، وهي الإظهار والمبادأة والأصل فيها الكشف. والمكاشفة ههنا: شهود الأعيان، وما فيها من الأحوال في عين الحقِّ، فهو التحقيق الصحيح بمطالعة تجليات الأسماء الإلهية. وصورته في البدايات: الإيمان بحقائق الأسماء الإلهية» (الكاشاني، 1992: 345).

وكلُّ شيء في هذا العالم يكشف طريقه بنفسه، فأنت تستطيع أن ترشد الآخرين إلي الخير و المعروف، ولكن هل في هذا الإرشاد ضمان للتنفيذ؟لا. إذن كلُّ شيء عندنا ينحت صدره بيده، جملة قاله أدونيس لبيان صعوبة الكشف عند البشر، صعوبة كشف المجهول. يتحمّلُ كلَّ هذه الصعوبات وهو محبٌّ وواضح أنَّ الحب هو تلك القوّة التي تسهل للإنسان تحمّل الصعوبات.

طبعاً نحن الآن أمام نصٍّ شعريٍّ راقٍ، من الصعب أن يفهم القارئء ماذا يقول أدونيس، وقسم من هذه الصعوبة يرجع إلي ظاهرة الغموض في شعره الذي سنتحدَّث عنه في مكانه. و ربما هذه الصعوبة هي السبب في هذا القول للشاعر. يقول أدونيس:«بعد خمسين عاماً من الكتابة يمكنني التأكيد أن شعري مازال بانتظار قرائته، كي يفهم علي نحو أفضل» (عبيد، 2012: 8).

وهذه القراءة خاصةً في لغته الصوفية تحتاج إلي فهم الحركة الباطنية أيضاً. في لقاء رائع و ممتع مع الشاعر، سأل عصام الغازي أدونيس: في فعلك الشعري ظواهر تسيطر عليها علاقات باطنية. هل تدخل في مصادرك، وتعتبر جذراً في حلمك؟

فأجاب الشاعر:«طبعاً. يجب أن نميز بين الباطنية كحركة تاريخية، و الباطنية كموقف من العالم، بالمعني الأول، لا علاقة لي بها إطلاقاً. بالمعني الثاني، الباطنية تهتم بما تسميه الحقيقة مقابل ما تسميه الشريعة أي بلغة شعرية، تهتم بما يتجاوز العادي. وبهذا المعني، أنا متأثر بالباطنية. والباطنية هنا تلتقي مع الصوفية، و تلتقي

كذلك مع السوريالية. وأنا أعتقد أن علي الشعراء السورياليين العرب أن يعودوا إلي هذه المصادر التي هي – دون شك – أكثر غنيمن المصادر الغربية. و الباطنية بهذا المعني أيضاً، بحث لا ينتهي عن حقيقة متحركة لا تنتهي. لذا فهي شعرية خالصة» (الخير، 2010: 24).

2-1-2. الحبِّ الإلهي في شعر أدونيس، طريق الاتحاد بالمطلق والأبدية

يعتقد أدونيس، بأنَّ السلفية الإسلامية التقليدية تري أنَّ الموت نهاية، وأنَّ الصوفية هي التي أعطت للموت معني الأبدية الإتحاد بالمطلق، وهذا التفسير ليس إلا ترديد لتفسير المستشرقين لكلام الحلاج وسواه من الصوفية المسلمين (منصور، 1999: 227). إذن كما قال الشاعر من الأفضل أن يعود الشاعر السوريالي العربي إلي مصادر تلك الأفكار والآراء في التراث الإسلامي. وفي رأينا أدونيس نفسه هو الرائد في هذا المجال، حيث يجعل الصوفية كحركة في تاريخ الإسلام، مصدر إلهام شعري، وفي هذا المجال يلجأ إلي الحبِّ حيث رائحة الحبِّ منثورة في كلِّ ما يتفوَّه به الشاعر. يقول أدونيس في قصيدة «أسرار»:

«يضمُّنا الموتُ إلي صدرِهِ
مغامراً، زاهداً
يحمِلنا سرّاً علي سّره
يجعلُ من كثرتِنا واحداً» (أدونيس، 1996؛ج1: 38).

الشاعر يتحدّث عن هذا الموت الذي ليس نهاية الحياة، بل يتحدَّث عن ذلك الموت الذي لا يوجد في موسوعة ثقافة الشاعر معني له، لأن الموت بهذا المعني ليس له وجود في مخيلة الشاعر. إذن هذا الحبِّ الإلهي جعل أدونيس يتصوَّر الموت سبب الوحدة والوحدة:«وهو في النهاية: أحدية الفرق والجمع، وهو توحيد الحقِّ ذاته بذاته وصورته في البدايات: شهادة أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، الأحد الصمد الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. والتوحيد عند الصوفية: هو شهادة المؤمن يقيناً أنَّ الله تعالي هو الأول في كلِّ شيء، أو أقرب من

كلِّ شيء، وهو المعطي المانع ولا مانع ولا ضار ولا نافع إلا هو» (الكاشاني، 1992: 378).

إذن الشاعر في هذه القصيدة يتحدّث عن تلك الوحدة الناتجة عن رحلة الانسان عن الدنيا و تلك الرحلة كانت و لا تزال مهيمنة علي العالم علي مرِّ العصور. وهذا الحبِّ الإلهي هو المنجي من الآلام و المغامرات، كما نشاهد في هذه القصيدة، الشاعر يعتبر الموت كمرحلة عابرة من الحياة، وهذه النظرة نابعة عن ذلك التصوّر الصوفي عند الشاعر الذي يري محبَّة الخالق في هذا المرور.

من أهمِّ الأسباب التي كانت سبباً في اختيار الشاعر الحبَّ الإلهي كطريق لحياته الشعري، هي أنَّ الشاعر قد عرف لذة الحبِّ الحقيقي، وأدونيس في كتابه الصوفية والسوريالية يشير إلي هذا الموضوع ويقول نقلاً عن ابن عربي:«إنَّ الحب يقترن بلذَّة لا لذَّة فوقها، وإنَّ له شراباً يصفه بأنَّه التجلِّي الدائم الذي لا ينقطع. والقلب، لا العقل، ولا الحسُّ، هو الكأس التي يشربُ بها الحبُّ. ذلك أنَّ العقل تقييد وهو من العُقال، شأن الحسِّ. أما القلب فيتقلَّبُ دائماً من حال إلي حال. وبما أنَّ للحبِّ أحكاماً كثيرة، مختلفة و متضادة، فلا يقدر أن يقبلها إلا القلب الذي يقدر أن ينقلب و يتقلَّب مع الحبِّ في هذه الأحكام» (أدونيس، 1991: 97). ومن نافل القول أنَّ أدونيس يستخدم هذا الحبَّ كطريق للوصول إلي الخلود و الأبدية والمطلق أي الحبِّ الحقيقي. وربِّما لأجل هذا لا يقبل أدونيس الصورة الدينية، أعني أنَّه يرجِّح الطريقة علي الشريعة. لاسيما أنَّه لا يقبل الأديان السماوية كاليهودية، والمسيحية والإسلام، غير رافض الأديان حيث يري إنها بالنسبة له سجن. وهو رجل لا يقبل إلا الحرية، فكيف يرضي بالسجن مستقراً ومقاماً. يقول أدونيس:

«و رأيتُ سجناً يقال له موسي
و قيلَ بولس و قيلَ مصطفي
فيه أشخاصٌ يبكونَ
تسيلُ عيونهم جداول»(أدونيس، 1996؛ج2: 418).

إذن الشاعر يري أنَّ تلك الأديان قد تحول دون العبد و ربه أو قل أنها تُبعد طريق الوصول إلي الله. و من هذا المنظار نري أنَّه يخالف الأديان. لكن هذا الرفض لا يعني أنَّ الشاعر لا يعتقد بالعالم الآخر. بل كثيراً ما وردت هذه النزعة الصوفية في شعره حيث أنَّه يميل إلي دار القرار و بيته الجميل. يقول أدونيس في قصيدة «شجرة»:

«مملكتي تَلبَسُ وجهَ الماءِ:
أملك في الغيابِ
أملك في الدَّهشةِ و العذابِ
في الصَّحوِ أو في النَّوء
لا فرقَ إن دَنوت أو نأيت
مملكتي في الضوء
الأرضُ بابُ البيتِ» (أدونيس، 1996،ج2: 128).

نري في هذا المقطع أنَّ الشاعر يبدي شوقه للوصول إلي هذه المملكة الأصيلة التي تكون الأرض بابها. و من هنا يدلُّنا علي رؤيته حول الحياة الأرضية حيث تشبه رؤيته بالرؤية الصوفية في نزوعهم إلي وحدة الوجود. إذن أدونيس كما يقول النقاد يؤمن بوحدة الوجود، و لكن هذا الاعتقاد لا يكتمل حتي يصير فلسفةً و اعتقاداً (منصور، 1999: 230). و ليس الواقع كما يقول الدكتور محمد منصور. ربَّما بدايات الخطأ ترجع إلي عدم المعرفة الواسعة بالنسبة إلي أدونيس. لأنَّ رؤية أدونيس - علي حدِّ قوله - رؤية كونية و بهذا الشكل يختلف شعره عمن سواه. يقول أدونيس بهذا الصدد:«فالفرق اليوم بين الشاعر الكبير و الشاعر الصغير هو أن الصغير، حين يعبِّر عن نفسه لا يعبِّر إلا عنها، أما الكبير فحين يعبِّر عن نفسه فإنَّه يعبِّر عن عصره كله، أي عن جوهره الحضاري. هكذا كان دانتي، هكذا كان شكسبير، هكذا كان غوته. شعر دانتي و شكسبير و غوته ليس، و الحالة هذه، انفعالاً و عاطفةً و شعوراً، و حسب، و إنما هو هذا كله و شيء آخر. هذا الشيء الآخر هو ما يمكن أن نسميه الفلسفة. فهؤلاء الشعراء عبَّروا، خلال عواطفهم و

انفعالاتهم، عن العالم. كان لهم، بمعني آخر، رأي في العالم و موقف منه، كانت لهم فلسفة. غير أنَّ هذه الفلسفة لم تكن نظاماً و لم تكن مذهباً. أي أنَّها لا تقدم لنا العالم في مجموعة من العلاقات المنطقية و العقلية، بل تقدمه في توهج الحدس و الرؤيا. في توهج الفلسفة كما يقول هيراقليطس مثلاً، أو نتشه، أو كما يفهمها اليوم هيدغر» (أدونيس، 1986: 173). و يتكرَّر هذا الاعتقاد بوحدة الوجود في أجمل شكل في قصيدة «أوراق في الريح» حيث يقول أدونيس:

«أسيرُ في الدَّربِ 7 1 التي تُوصلُ اللهَ

إلي الستائرِ المسدَّلةِ

لعلَّني أقدرُ أن أبدله» (أدونيس، 1996؛ج1: 99).

بهذا المعني الذي يتحدَّث عنه أدونيس نستطيع أن نقول أنَّ الشاعر لديه فلسفة شخصية – إن صحَّ التعبير – تجاه الكون. و لأجل هذا حاول أن يكون شعره صدي لرؤيته الفكرية. و في مجال الصوفية يصحُّ القول: أنَّ الشاعر يفتِّش عن حلٍّ دائمي بالنسبة إلي الوحدة و الغربة و التي يحسُّ بها الانسان في هذا العالم و من أجل هذا وجد الشاعرُ الصوفيةَ كأحسن ملاذٍ للجوء إليها و لحلِّ أزمته.

2-1-3. الحب الإلهي في شعر أدونيس، إيمان بالوحدة

مطابقاً لما جاء في القسم السابق، نستطيع أن نقول بأنَّ أدونيس يسير في طريق الوصول إلي هذه الوحدة بصورة متوالية، يعني في البداية جعل الحبَّ طريق الوصول إلي الوحدة، و في النهاية جعل الحبَّ بمعني الوحدة. و أصحاب وحدة الوجود المادي كما هو المعروف، يناصبون الأديان العداء، فمنطق مذهب وحدة الوجود يقضي القضاء التام علي كيان أي دين منزل، و تضيع معالم الألوهية بمعناها الديني الدقيق (منصور، 1999: 233). و من هنا نستطيع أن نذكر شواهداً من شعر أدونيس، تعكس هذه العقيدة في بعض القصائد. يقول أدونيس:

«مسافرٌ تركتُ وجهي علي

زجاجِ قنديلي

خريطتي أرضٌ بلا خالقٍ

والرفضُ إنجيلي» (أدونيس، 1996؛ج1: 224).

ولا شك أنَّ عبارة «الرفض إنجيلي» تعكس عقيدة الشاعر حول وحدة الوجود. و هنا يمكن أن ندخل في صميم البحث الصوفي حول العقائد الصوفية تجاه الدين. و مثل هذه العقائد تحتاج إلي التبرير كما أنَّ الصوفية تلجأ إلي التفاسير المختلفة في مثل هذه الأقوال. يفسر أدونيس عقيدة المعتقدين بوحدة الوجود حيث يقول:«إذا انطلقنا إنَّ الله لا يعرف إلا بالله، أو القول لا يعرف الله إلا الله، فإنَّ معرفة الانسان بالله تظلُّ في حاجة دائمة إلي تجاوز نفسها و إلي التجدد، لكي تظلَّ في مستوي ما تطمح إلي فهمه: لامحدودية الله، و لا نهائيته. فإذا كان الله سراً متواصلاً فلا بدَّ من أن تكون معرفته كشفاً متواصلاً» (أدونيس، 1991: 139). ومن هنا يمكن القول: إنَّ الشاعر ثوروي في الدين و مثل هذه العبارات من أدونيس تكون ذات أبعاد خفية تدخل في صميم فلسفة الوحدة الوجودية و هي معرفة الله. و هكذا يبدو أنَّ الشاعر يري أنَّ المعرفة الحقيقية قسيمة الحركة وراء كلِّ الأديان. ربَّما سبب دعوة الشاعر إلي التعددية يرجع إلي هذه العقيدة الصوفية كما أشارت إلي هذا الموضوع فرانك سلامه في مقال معنون بـ«أدونيس، الأزمة السورية، وقضية التعددية في بلاد الشام». و في رأينا أنَّ هذا النوع من التعامل الديني ينشأ عن عقيدة الشاعر حول وحدة الوجود. هذا و من جهة أخري نري أنَّ في بعض الأحيان الموت يكون الجانب الكبير في فكر الشاعر في مجال الحبِّ الإلهي. و لكن كيف؟ يري أدونيس أنَّ الموت هو التحقق الكامل للعشق. و يربط ذلك بالفناء الصوفي الكامل (المتحقق بالموت). لماذا الموت؟ لأنَّ الموت هو السبيل الوحيد الذي يقضي علي الإثنينية. فما من وحدة علي هذا المستوي دون موت، و لا تكتمل الحياة إذا لم يمت، يموت الصوفي العاشق للحياة من أجل الحياة . يقول أدونيس في ديوان المسرح و المرايا و في قصيدة «جنازة امرأة»:

«الموتُ وجه شاعرٍ، أو كلمةٌ
منذورةً للأرضِ

الموتُ حضنُ عاشقٍ
و تمتمةٌ
إنّي في عروقِه
قصيدةٌ أو نبضٌ» (أدونيس، 1996؛ج1: 337).

الموت في رأي الشاعر هو تلك النهاية المباركة التي تبشر الشاعر بالوحدة الإلهية. و لهذا يقول: «الموت وجه الشاعر». كأنَّ الشاعر يتحدَّث عن الأحوال و المقامات و يسير نحو الشهود، و نحو المثول أمام الحضرة، و الإتحاد مع المطلق. فيمثِّل الموت هذا المفهوم الذي يمثِّل فكرة الشاعر، حيث تتحقق بالموت الحياة الكاملة، سواء في العشق الجسدي كما ذكرت، أو في العشق الصوفي.

3. النتائج

الحبُّ الإلهي في شعر أدونيس، يكون متَّجهاً إلي أهداف، منها أنَّ الصوفية في ذاتها تعطي للشعر الحديث الحيوية كما أنَّها تعطي للشاعر قدرة الإبداع، و يبدو أنَّ ماهية الصوفية ليست متنافرةً مع ماهية الحداثة، كما أنَّ حركة الحداثة في ذاتها تكون غامضة – خاصة في شعر أدونيس – أيضاً الصوفية بالنسبة إلي القرَّاء العاديين تكون غامضة، لأنَّها تجربة حقيقية و ادراكها يحتاج إلي السير في هذا الطريق. أدونيس استخدم الصوفية كرؤية جديدة للعالم و من هنا هذه الصوفية تجعل الشاعر مبدعاً في معظم ما قال في مجال الحبِّ الإلهي.

أمَّا من الناحية الفكرية، فأقول أنَّ صوفية أدونيس، أو الحبُّ الإلهي في شعر أدونيس هو الطريق الأول و الأخير للنجاة، يري أدونيس أنَّ عصارة العالم تختصر في هذا الحبِّ. و الشيء المهم بالنسبة إلي الحبِّ الإلهي في شعر أدونيس هو أن لا ننسي أنَّ الحبَّ الإلهي من منظار أدونيس، يدخل في الصوفية من البدء إلي السُلَّم الأخير. لأنَّ الحبَّ عند الصوفية، كالهواء بالنسبة إلي الإنسان، فكما أنَّ الإنسان لا يقدر أن يواصل الحياة بدون الهواء، فإن الصوفية لا تستطيع أن تسلك الطريق خالياً من عاطفة الحبِّ. إذن الحبُّ هو الحلقة المرتَبطة بالفضاء الصوفي عند أدونيس.

الحبُّ الإلهي في شعر أدونيس، هو الحلُّ الوحيد للأزمة الروحية و الفكرية للإنسان المعاصر، كثيراً ما ورد مفهوم وحدة الوجود في شعر أدونيس. يبدو أنَّ هذا الفكر يرجع إلي تأثر الشاعر من التعددية التي يعتقد بها، أو قل أنَّ نظرته إلي الوحدة الحاكمة علي العالم تكون قد سبَّب أن يميل الشاعر إلي هذه العقيدة.

4. المصادر و المراجع

أبوديب، كمال (1984). الحداثة، السلطة، القاهرة، مجلة الفصول، عدد 3، مجلد 4.

أدونيس (1986). زمن الشعر، بيروت، دار الفكر للطباعة و النشر.

أدونيس (1991). الصوفية و السوريالية، دار الساقي، الطبعة الثالثة.

أدونيس (1996). الأعمال الشعرية، المجلَّد الأول (أغاني مهيار الدمشقي و قصائد أخري)، بيروت، دار المدي للثقافة و النشر.

أدونيس (1996). الأعمال الشعرية، المجلَّد الثاني (هذا هو اسمي و قصائد أخري)، بيروت، دار المدي للثقافة و النشر.

التفتازاني، أبوالوفا (1986). مدخل إلي التصوف الإسلامي، قاهرة، دار الثقافة القاهرة.

الخير، هاني (2010). أدونيس شاعر الدهشة و كثافة الكلمة، دمشق، دار رسلان للطباعة و النشر و التوزيع.

الرحاوي، فارس (2013). مفهوم الشعر بين أدونيس و نزار قباني، الحازمية، الدار العربية للموسوعات، الطبعة الأولي.

زكي محمود، نجيب (1983). مع الشعراء، القاهرة، دار الشروق، ط1.

سلدن، رمان (2006). من الشكلانية إلي مابعد البنيوية، موسوعة كمبريدج في النقد الأدبي، المجلس الأعلي للثقافة، الطبعة الأولي.

شايگان فر، حميد (1390). نقد ادبي، تهران، انتشارات دستان، چاپ چهارم.

عبيد، محمد صابر (2001). القصيدة العربية الحديثة بين البنية الدلالية و البنية الإيقاعية، دمشق، اتحاد كتاب العرب.

القاشاني (1984). اصطلاحات الصوفية، تحقيق: محمد كمال جعفر، القاهرة، هيئة الكتاب.
الكاشاني، عبدالرزاق (1992). اصطلاحات الصوفية، القاهرة، دار المنار، ط1.
منصور، ابراهيم (1999). الشعر و التصوف؛ الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر، دار الامين للنشر والتوزيع.
النفري، محمدبن عبدالجبار (1985). المواقف و المخاطبات، تحقيق: آرثر أبري، تقديم: عبدالقادر محمود، القاهرة، هيئة الكتاب.
هدارة، محمد مصطفي (لا تا). النقد الأدبي بين النظرية و التطبيق، الإسكندرية، مركز الشنهابي للطباعة و النشر.

[1]. أستاذة مساعدة في اللغة العربية و آدابها بجامعة تربيت مدرس.

[2]. استاذ مشارك في قسم اللغة العربية و آدابها بجامعة تربيت مدرس.

[3]. طالب مرحلة الدكتورا في فرع اللغة العربية و آدابها بجامعة تربيت مدرس.

[4].*Illusions*

[5].*Poetic creativity*

[6] .*Friedrich Schleiermacher*

[7] . *Wilhelm Dilthey*

[8] .*Hans-GeorgGadamer*

[9] . *Modernism*

[10]. *Novalis*

[11] .*Mallarmé*

[12]. *Hermann Bahr*

[13].*Partial*

[14].*Malraux*

[15] التكلمة بما يُعْجِبه ويَسُرُّه.

[16] . راحم

[17] . الطريق